التحولات الكبرى في المتوسط خلال العشرية الأخيرة ورهاناتها على أمن المنطقة المغاربية

The Major Transformations in the Mediterranean and their Stakes on the Security in the Maghreb Region during the last decade

تاريخ الإرسال: 2018/07/20 * تاريخ القبول: 2019/02/03 * تاريخ النشر: 2019/02/10

أ.د/ سلوى بن جديد
قسم العلوم السياسية - جامعة عنابة
sa2loua@yahoo.fr

ملخص:
تحاول هذه الورقة، البحث في الرهانات التي تطرحها التحولات الكبرى الحاصلة خلال العشرية الأخيرة في منطقة حوض المتوسط خاصة في شماله وشرقه، على أمن المنطقة المغاربية، بالمفهوم الواسع للأمن، وبكل ما تشمله هذه المنطقة من دول واقتصاديات ومجتمعات وثقافة. وهذا يقود في مقام أول، إلى تحديد مظاهر التحول والمجالات التي مسها، ثم عرض ما نراه في خضم هذه التحولات، يشكل رهانات على أمن المنطقة المغاربية.

الكلمات المفتاحية: منطقة المتوسط، التحولات الجيواستراتيجية، المنطقة المغاربية، الرهانات الأمنية.

Abstract:
This article try to examine the stakes of the major transformations that have occurred in the last decade in the Mediterranean region, especially in the North and the East, and their implications on the security in the Maghreb region, in the broad sense of security, and in all what the region includes of : countries, economies, societies and culture. This leads first and foremost to identifying the aspects of the changes we are talking about, and then showing what we see as stakes on the security in the Maghreb region in the midst of these transformations.

Keywords: *The Mediterranea, Major transformations, Maghreb Region, Security challenges.*

مقدمة:

يعد البحث في الرهانات بالأساس، بحثا في السيناريوهات الأسوء المحتملة، على ضوء جملة من العوامل الملموسة ومن المؤشرات التي تقوي سير الأحداث وتطورها باتجاه هذه السيناريوهات. ويشكل كل رهان في حد ذاته إشكالية بحث بحاجة إلى معالجة، لتحديد آليات تفادي حدوثه أو آليات التكيف معه.

وتتمثل فرضيتنا في الموضوع في كون المنطقة المغاربية وبحكم العاملين الجغرافي والحضاري اللذين يميزانها، مرشحة لأن تكون منطقة الصدى القوي للتحولات الكبرى في شرق وشمال المتوسط، دون أن تكون المسرح الرئيسي لتداعياتها ولا منطقة الحسم في مجرياتها، بما في ذلك الأزمة الأمنية في ليبيا، لأنها تداعت وتعقدت بما تغذت به من عوامل وافدة إليها من شرق وشمال المتوسط، فهي تشكل فرعا من أصل، وعليه لن تلقى حلا إلا بانتفاء وتوقف ما يمكن أن يكون عوامل أذكتها وفاقمت منها.

وهكذا يهدف هذا المقال بالفرضية التي يبحث فيها إلى محاولة تقدير الحاجات الأمنية المستقبلية للدول والشعوب المغاربية، وكذا محاولة تقدير حدود وإمكانيات التحرك التي يمكن أن تتوفر لهذه الدول في المستقبل، من خلال تقديم رؤية تحاول أن تكون شاملة عن الرهانات المحتملة في المنطقة المغاربية والتي تطرحها عليها التحولات الكبرى بما فيها التحولات الجيو استراتيجية والجيوبوليتيكية الحاصلة في منطقة حوض المتوسط خلال العقد الأخير.

المحور الأول: التحولات الكبرى في المتوسط

يمكن أن نعرض في هذا الإطار لجملة من التحولات التي تشهدها المنطقة المتوسطية في كل أنحائها بما فيها المنطقة المغاربية التي تشكل جزءا من هذا الفضاء الواسع. وإذا كانت هذه المنطقة تعد في هذا البحث، "المتغير التابع" والتحولات الكبرى تعد "المتغير المستقل"، بحيث يحاول البحث تحديد ما تطرحه هذه التحولات من رهانات على المتغير الأول، فإن هذا لا يمنع من رصد ما يمكن أن يكون من تحولات في هذه المنطقة المغاربية نفسها وتأثير ذلك على منحى تطورها.

ويمكن أن نميز في هذه التحولات من حيث المجال الجغرافي الذي تجري فيه بين ثلاث مجموعات، مجموعة أولى تخص بلدان شمال المتوسط، وثانية تخص بالأساس منطقة جنوب وشرق المتوسط، ومجموعة ثالثة مشتركة تخص منطقة المتوسط في مجملها.

أولا: التحولات الكبرى في شمال المتوسط

هي جملة من العوامل المتفاعلة فيما بينها، يعد العامل الاقتصادي المرتبط بالأزمة المالية والاقتصادية وتداعياتها، المتغير الرئيسي فيها، والمدخل للتحولات الكبرى في المنطقة بل وفي العالم كله، ويمكن أن نعرض لهذه العوامل في الآتي:

1 – تراجع النمو الاقتصادي في دول شمال المتوسط

لم تشهد أوروبا والعالم المتقدم منذ عام 1929، أزمة مالية اقتصادية بنيوية حادة كالتي تشهدها حاليا منذ 2008، وإن كانت لأسباب تختلف عن أسباب الأولى. وإذا كانت أسباب الأزمة الأولى سمحت بمعالجة الأزمة بتكاليف أقل من الثانية، وقد تمثلت هذه التكاليف في "ضرورة" إشعال حرب عالمية ثانية
لإعادة بناء التوازنات التي اختلت لغير صالح الرأسمالية المتحررة من القوميات، فإن الهامش الموجود بيد القوى الرأسمالية العالمية لمعالجة الأزمة الثانية لصالحها، تتطلب تكاليف أغلى من تكاليف الأولى.

لقد تداعت الأزمة المالية الاقتصادية في بلدان الضفة الشمالية للمتوسط اسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان والبرتغال وقبرص بنتائج درامية على قوة الاقتصاد والدولة ومستويات معيشة الشعوب، في مقابل زيادة النمو في دول جنوب المتوسط قبيل الحراك السياسي 2011 [1] ، ما يفتح مجال افتراض أن هذا الحراك كان آلية لمنع الاختلال في النمو بين دول الضفتين لصالح الضفة الجنوبية، الذي كان سيحصل لولاه.

2 - تراجع في قوة أوروبا عن العطاء الحضاري

يسجل بفعل العامل الأول أساسا، وبفعل عوامل أخرى قد لا تقل أهمية، تراجع واضح لأوروبا عن العطاء الحضاري والإبداع والتنظيم، حيث لم تعد تحتفظ إلا بقوة زرع الفوضى وحتى وإن أرادتها "بناءة" فإنها وللسبب المذكور، لا يمكن إلا أن تكون فوضى هدامة مدمرة دمارا شاملا، فالفوضى "البناءة" تحتاج إلى فاعل (Acteur) قوي فعلا، يتحكم فيها، متحرر في إطار النسق الذي يتحرك فيه وليس عونا (Agent)، لأنه يؤثر في النسق أكثر مما يتأثر به، ليستطيع أن ينشئ بناءات جديدة بعد الفوضى "البناءة" التي ينشرها كعامل محرر للطاقات والحريات المكبوتة، ومؤسس لمدركات جديدة للهوية والمصالح[2].

وإن هذه القراءة، تلتمس استدلالاتها من عمق أوضاع وحالات أوروبا، بواقعية علمية، وهي غير متأثرة إطلاقا بما يصرح به فلاديمير بوتين ومن ورائه ملهمه المنظر السياسي ألكسندر دوغين[3]، فهي تتوافق معه دون أن تجعل منه منطلقا لها. يرى بوتين أن أوروبا "في انحطاط، تفتقر للمثل، منسلخة عن أصولها المسيحية، دون زعيم أهل لهذا الدور،

ضعيفة إذن" (décadente, orpheline de grands idéaux, déliée de ses racines chrétiennes, sans leaders dignes de ce nom, faible donc)[4].

3 - وصول الحركات الشعبوية واليمين المتطرف إلى الحكم في أوروبا

تشهد أوروبا منذ سنوات تنامي غير مسبوق لحركات وأحزاب اليمين الراديكالي والمتطرف وحركات وأحزاب شعبوية محافظة، لم تسلم منه إلا إسبانيا والبرتغال وأيرلندا لأسباب تاريخية معروفة. ففي الانتخابات الرئاسية في فرنسا خلال العشرية الأخيرة حققت الجبهة الوطنية نتائج تاريخية هي الأعلى في تاريخ الجمهورية الخامسة، حتى وإن كانت أقل من النتائج التي حققها اليمين المتطرف في النمسا وسويسرا. حيث تحصلت مرشحة الجبهة مرين لوبان على 17,90 % من أصوات الناخبين في الدورة الأولى من انتخابات 2012 وجاءت في المرتبة الثانية في دورتي انتخابات 2017 بحصولها على التوالي على 21,30 % و 33,90 % من أصوات الناخبين[5]. ويعطي الجدول المدرج ضمن الملاحق فكرة عن خارطة اليمين المتطرف في أوروبا من خلال المقاعد التي شغلها في برلمانات بعض الدول الأوروبية في سنة 2012.

وبعدد مقاعده، يعدّ الاتحاد الديمقراطي المجموعة البرلمانية الأولى في سويسرا، وقد جمع الاتحاد الذي يعد حزبا شعباويا مناهضا للهجرة، 28 % من الأصوات في الانتخابات الفيدرالية التي جرت في أكتوبر 2015. أما في هولندا فقد انتقل حزب الحرية، من خلال الانتخابات التشريعية المسبقة التي جرت في جوان 2010، من 9 مقاعد إلى 24 مقعدا كما هو مبين في الجدول المذكور. وبالنسبة لحزب التقدم النرويجي الذي ضم في صفوفه لمدة معينة القاتل أندرس بهرينغ بريفيك (Anders Behring Breivik) المرتكب للأحداث الدموية التي شهدتها النرويج في 22 جويلية 2011، فإنه إذا كان الخاسر الأكبر في الانتخابات المحلية التي جرت عقب هذه الأحداث، فإنه مع موجات الهجرة واللجوء إلى أوروبا ابتداء من سنة 2015 عاد بقوة إلى الواجهة. أما حزب "ديمقراطيو السويد" الذي سجل بما حصل عليه من مقاعد مشار إليها في الجدول الملحق، أول دخول له إلى البرلمان، فقد جمع 13 % من أصوات الانتخابات التشريعية في 2014.[6]

ويسجل في النمسا تمكن حزب الحرية اليميني المتطرف من جمع ثلث (3/1) الأصوات خلال الانتخابات البلدية الجزئية التي جرت في أكتوبر 2015، أي في أجواء أزمة المهاجرين، وحتى خلال الانتخابات التشريعية في 2013 كان وضعه جيدا بـ 22 في المائة من الأصوات. وحسّن حزب الشعب الدانمركي المعروف بمناهضته للهجرة، من وضعه في الانتخابات التشريعية التي جرت في جوان 2015، بحصد 21,1 في المائة من الأصوات. وإذا لم يحصل حزب المصلحة الفلمنكية (Vlaams Belang) في الانتخابات الفيدرالية التي جرت في 2014 إلا على 5,8 % من الأصوات، فإنه حسب عملية سبر للآراء أجريت في سبتمبر 2015 سجل صعودا إلى أكثر من 9 % من نوايا التصويت.[7]

وفي إيطاليا جمعت رابطة الشمال (la Ligue du Nord) المناهضة للهجرة، 13 % من أصوات الانتخابات الجهوية في 2015، بحيث أصبحت أهم قوة في اليمين الإيطالي، وقد ساهمت أزمة المهاجرين في تعظيم تأثير الرابطة على المنتخبين. وفي اليونان جمع الحزب المتطرف "الفجر الذهبي" (Aube dorée) 7 في المائة من الأصوات في الانتخابات التشريعية التي جرت في سبتمبر 2015.[8]

وباستثناء الحزب النازي الجديد (NPD) في ألمانيا الذي لم يجمع سواء 1,3 % في الانتخابات العامة في 2013، وحركة بيجيدا (Pegida) المناهضة للإسلام، التي لا تشارك في الانتخابات، فإن أحزاب اليمين الراديكالي والمتطرف والحركات الشعبوية في أوروبا، دعمت من موقعها وقوتها في كل الانتخابات التي جرت منذ بداية تدفقات اللاجئين من منطقة الشرق الأوسط نحو أوروبا في سنة 2015. فحزب "البديل من أجل ألمانيا" (L'Alternative pour l'Allemagne - AFD) والذي كان في بدايته حزبا شعبويا ثم أصبح فيما بعد وطنيا متطرفا، تمكّن في الانتخابات الجهوية التي جرت في 13 مارس 2016، من أن يصبح القوة السياسية الثلاثة بعد الحزبين الرئيسيين في ألمانيا، وخرج في المرتبة الثانية في الانتخابات الجهوية التي جرت في 4 سبتمبر 2016، وذلك قبل حزب المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل "الاتحاد المسيحي الديمقراطي لألمانيا" (Union chrétienne-démocrate d'Allemagne)، رغم أنه لم

ينشأ إلا في ربيع 2013، ليفوز بـأزيد من 13 % من الأصوات في الانتخابات التشريعية التي جرت في 24 سبتمبر 2017، ما يسمح له بدخول البرلمان الفيدرالي (Bundestag) بـأزيد من 90 نائبا. وتعد هذه أول مرة منذ 1945 يعتب فيها حزب ألماني يميني متطرف البرلمان الفيدرالي[9].

أما حزب استقلال المملكة المتحدة (United Kingdom Independence Party - UKIP)، الشعباوي المناهض للهجرة ولوجود بريطانيا ضمن الاتحاد الأوروبي، فحتى وإن تراجع من 26 % في الانتخابات الأوروبية في 2014 إلى 12 % في الانتخابات العامة في ماي 2015[10]، فإنه بالاستفتاء الشعبي الذي جرى في 23 جوان 2016 تمكّن ـــ إلى جانب فواعل أخرى مستقلة عنه وربما تكون قد وظفته بنسبة معينة من أجل الهدف نفسه ـــ من إخراج المملكة المتحدة من الإتحاد الأوروبي. ثم إن صعود هذا الحزب في السنوات الأخيرة ـــ والذي كان قد تأسس في مطلع التسعينيات ـــ يعتبر في حد ذاته تحولا كبيرا في بريطانيا، قطب العالم الحر وبلد التقاليد الليبرالية.

كما شهدت أوروبا في السنوات الأخيرة ظهور أحزاب وحركات شعبوية يسارية ومن أقصى اليسار كرد على تداعيات الأزمة الاقتصادية وآليات مواجهتها بسياسات التقشف المفروضة من قبل الترويكا (المفوضية الأوروبية والبنك المركزي الأوروبي وصندوق النقد الدولي)، وقد تمكّنت هذه الحركات والأحزاب من تحقيق نتائج معتبرة في الانتخابات التي خاضتها، ويذكر في هذا الإطار حزب سيريزا (Syriza) في اليونان وبوديموس (Podemos) في إسبانيا، وحركة فرنسا العاصية (La France Insoumise) التي تتشكل من أحزاب وحركات من أقصى اليسار[11].

4 - عودة ظهور الانشطار في منظومة قيم حضارة أوروبا

بعد التباعد في القيم في الحضارة الواحدة بين "معسكر غربي" من جهة، يدين بقيم الرأسمالية الليبرالية ويضم دول غرب أوروبا وشمال أمريكا، ومعسكر شرقي من جهة ثانية، يدين بالفكر والعقيدة الماركسية اللينينية ويضم الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية[12]، التقى المعسكرين ـــ بانتهاء الحرب الباردة ـــ عند أرضية قيم واحدة، ولكن بمجرد ما بدأت أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية تزرع الفوضى في النظام الدولي الاقتصادي والسياسي، برأسمالية تارة منفتحة بلا حدود على السوق العالمية (Un Capitalisme Ultralibéral)، وتارة أخرى حمائية تغذيها الوطنية الاقتصادية، وبليبرالية متحررة من كل القيم (Un libéralisme libertaire) [13] إلى حد الضياع.. والاستلاب..، حتى أخذت روسيا تؤسس لعقيدة تروج لرأسمالية تحترم الحدود القومية، ولليبرالية محافظة تثمّن القيم المثلى. وتقوم هذه العقيدة بصفة عامة على ثلاث ركائز نعرض لها باختصار فيما يلي.

بلور بوتين لروسيا ابتداء من سنة 2013، عقيدة محافظة يلوح بها ضد الليبرالية السياسية الغربية، حيث يذكّر باستمرار بقيم المسيحية (la chrétienté) والسلطة (l'autorité) والوطنية (patriotisme) والأسرة التقليدية (la famille traditionnelle)، بحيث يريد لروسيا أن تكون مشعل المحافظة (conservatisme) في أوروبا، وهذا يسوّق بطريقة جيدة، حيث يتزايد من يوم إلى آخر عدد الأوروبيين المعجبين بهذا الخطاب[14].

كما تروج عقيدة الرئيس بوتين لفكرة "الطريق الروسي" (voie russe) التي تقوم على تأكيد امتلاك روسيا لطريقها في تنمية ذات خصوصية (développement spécifique)، بحكم مساحة البلد وثقافته الشعبية أو أيضا تقاليده الأرثوذكسية. طريق لا ينبغي أن "تلوث" من قبل الغرب والديمقراطيات الغربية، كما قد يرى بوتين. وأخيرا فإن إستراتيجية هذا الأخير ترتكز على مفهوم "أوراسيا" (Eurasie)، الفكرة والمشروع الذي على روسيا وفقا له، أن تتطور باتجاه آسيا بالقدر نفسه أو أكبر من تطورها باتجاه أوروبا[15].

ثانيا: التحولات الكبرى في شرق وجنوب المتوسط

يمكن أن تفهم التحولات الكبرى في شرق وجنوب المتوسط على أنها في إطار الدراسة السببية (L'Etude causale) تعد على العموم من تداعيات جملة التحولات الكبرى في أوروبا والعالم، وأن منطقة شمال إفريقيا والمنطقة المغاربية منها على وجه الخصوص، تظل في إطار جدلية التأثير المتبادل بين المنطقتين العربيتين، المنطقة الأكثر تأثرا

والأقل تأثيرا، حتى وإن انطلقت الانتفاضات العربية في أواخر 2010 من تونس. وهذه التحولات نراها تتجلى خاصة في:

1 - محاولة فرض مشروع "عثمانية جديدة" في المنطقة العربية المتوسطية

يعتبر هذا تحولا كبيرا من حيث أنه صادر بالأساس عن حكومة ـــ حتى لا نقول نظام ـــ دولة كافحت كفاحا شديدا منذ سنة 1924، من أجل فرض تقاليد دولة علمانية حداثية منفتحة بقدر أكبر على ثقافة أوروبا من ثقافة الشرق، وإنهاء لنظام خلافة إسلامية دام قرونا، ولارتباط لتركيا بفضائها الثاني الشرق أوسطي الذي قلصته عند حدود إسرائيل، لتسعى بعد 80 سنة ودون نضج للفكرة، نحو إحياء للعثمانية (Ottomanisme) القديمة في شكل جديد[16]، ليس له من الأولى إلا الاسم حتى مع اعتبار الأولى نفسها، غير ذات أثر إيجابي في كل البلاد العربية وعلى مدى الزمن الذي عمرته فيها[17].

لقد كان من المخطط له أن يتمخض عن الحراك السياسي الذي شهدته الدول العربية المتوسطية ـــ باستثناء لبنان ـــ والذي اصطلح عليه الإعلام الغربي بـ "الربيع العربي"، وصول أحزاب الإسلام السياسي الجهادي الدعوي إلى الحكم بعد مصادرة الانتفاضات العربية من الليبراليين الذين بادروا بها، لتأسيس "خلافة إسلامية" تحت لواء حزب التنمية والعدالة التركي وحكم رجب طيب أردوغان، "خلافة" تحاول أن تمزج بين الأصالة والحداثة، بين الإسلام والرأسمالية، لأنها ستكون منذ نشأتها تابعة وخاضعة للدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية كما كانت تركيا العلمانية خاضعة لهذه القوى منذ عقود من الزمن.

ويعتبر مشروع "العثمانية الجديدة" هذا، تحولا كبيرا في تركيا حيث يضطرها إلى التخلي تماما عن علمانيتها وطبيعة دولتها ونظامها، لتعانق التاريخ وفكرة إحياء ما يراه طيب أردوغان وداوود أوغلو "مجد عثماني". لقد كان هذا التحول الذي سبقته مؤشراته منذ وصول حزب العدالة والتنمية إلى سدة الحكم في تركيا، من وراء ما حدث في سوريا من دمار وأزمة أمنية وسياسية، حيث تحالفت تركيا حزب العدالة والتنمية مع بعض دول الخليج العربية المحافظة لإسقاط الأنظمة الجمهورية في الدول العربية المتوسطية، ومساعدة أحزاب الإسلام السياسي الدعوي فيها، في الوصول إلى الحكم وانضوائها بحكوماتها تحت راية الدولة العثمانية الأردوغانية الحديثة، المرشحة هي بدورها للانضواء تحت راية الولايات المتحدة الأمريكية. وبعودة تركيا إلى دور أكثر "واقعية" في سياستها الخارجية عقب محاولة الانقلاب ضد الرئيس أردوغان (15 جويلية 2016)، يبقى هناك سؤال يطرح نفسه بإلحاح: هل تخلّت تركيا عن مشروعها التوسعي في العالم العربي "العثمانية الجديدة" أم أنها أجلته لوقت لاحق تتوفر لها فيه من منظورها، ظروف أفضل لتحقيقه ؟

2 – الدمار الشامل في العراق وسوريا

ما يحدث في العراق وسوريا يعد تحولا كبيرا، حيث عطلت أوضاع الفوضى والدمار واللا استقرار فيهما أدوار الدولتين في الداخل وعلى صعيد النظام الإقليمي العربي. وتشير نتائج تقييم الوضع في سوريا على وجه التحديد، في جميع المجالات وعلى مختلف المستويات، إلى أن العالم لم يشهد دمار حرب مشابه، إلا خلال الحرب العالمية الثانية، والشيء نفسه فيما يتعلق بنسب وأعداد المهاجرين واللاجئين من سوريا. وحسب المركز السوري للدراسات السياسية (SCPR) الذي هو منظمة غير حكومية تعمل مع وكالة الأمم المتحدة للاجئين، يصل عدد ضحايا النزاع في سوريا الذي اندلع في مارس 2011 إلى 470 ألف قتيل، منهم 70 ألف ماتوا بسبب نقص مياه الشرب والغذاء والدواء[18].

ويشير تقرير المركز السوري، إلى أن 11,5 % من السوريين إما قتلوا أو أصيبوا بجروح نتيجة النزاع الدائر، حيث بلغ عدد الجرحى مليون و900 ألف جريح، ويكون النزاع بهذا قد أدى منذ بدايته إلى خفض سكان البلاد بـ 21 %، حيث دفع إلى جانب ما تسبب فيه من قتل، إلى الهجرة واللجوء إلى الخارج. وقدرت نسبة النازحين بصفة عامة بـ 45 % من سكان البلاد، أما التكلفة الاقتصادية التي تكبدتها سوريا فترتفع إلى255 مليار دولار (225 مليار يورو). وحسب المصدر نفسه، انخفض متوسط مدى الحياة بـ 15 سنة، بالانتقال من 70 سنة في عام 2010 إلى 55 سنة في عام 2015[19].

أما العراق الذي يعتبر الفناء الخلفي لمنطقة حوض المتوسط والمؤثر فيها تأثيرا مباشرا وحاسما، فقد بلغ العنف فيه ذروته مع بداية العشرية الأخيرة بسبب اندلاع حرب أهلية مدمرة بتحريك من جيش الاحتلال الأمريكي، وظهور تنظيم

إرهابي هو تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق"، سيطر على نسبة كبيرة من أرض العراق وعلى ثاني أكبر مدينة فيه (الموصل)[20] قبل تحريرها بثمن باهظ في العباد والعمران، وقد بلغ التواجد العسكري الأمريكي في بداية العقد الأخير (2007) ذروته بـ 170 ألف جندي أمريكي[21] قبل أن ينسحب في ديسمبر 2011 تاركا دولة هشة ومجتمعا مفككا.

وقد وصل عدد الضحايا في العراق منذ الحرب الأمريكية في 2003 على هذا البلد العربي، إلى مليون قتيل حسب تقرير نشرته مجموعة من المنظمات منها "الجمعية الدولية للأطباء من أجل الوقاية من حرب نووية" (*Association internationale des médecins pour la prévention de la guerre nucléaire*). وذكر التقرير أن أكثر من 600 ألف عراقي قتلوا عقب بداية التدخل الأمريكي البريطاني، أي بمعدل 500 قتيل يوميا، وهذا العدد يشكل نسبة 2,5 % من عدد السكان. ويشير التقرير إلى أن ما حصل يعد "جريمة ضد الإنسانية قريبة من إبادة جماعية "[22]

3 - دخول الصراع العربي الصهيوني منعرج جديد

أحداث تعاقبت في شأن القضية الفلسطينية جعلت منها تدخل منعرجا جديدا ليس حتما في صالحها في القريب العاجل، حتى مع توقيع حركة فتح وحماس الفلسطينيتان لاتفاق المصالحة الوطنية في 12 أكتوبر 2017 بالقاهرة، لكن يخدمها في النهاية مع جملة تطورات الداخل الفلسطيني، إنه منعرج متميز بتحولات مست الداخل الإسرائيلي حيث توسعت دائرة الإسرائيليين الرافضين لسياسة إسرائيل، فقد بلغ عدد الشخصيات الإسرائيلية التي دعت بعض حكومات أوروبا إلى الاعتراف بدولة فلسطين على حدود 1967، 800 شخصية، منهم كاتبين مشهورين واقتصادي حاصل على جائزة نوبل ورئيس سابق للكنيست ووزير سابق[23].

وما يميز القضية الفلسطينية خلال العقد الأخير هو أن الاعتراف بدولة فلسطين على حدود 1967 امتد إلى دول لم تكن تحسب بصريح العبارة إلى جانب القضية. ولقد دشنت دولة السويد عملية الاعتراف هذه، **حيث** اعترفت في 30 أكتوبر **عام 2014** بدولة فلسطين مع وجود تمثيل دبلوماسي متبادل بين الدولتين، ليصل إجمالي عدد الدول المعترفة رسميًا بدولة فلسطين إلى 135 دولة. وبتاريخ 2 جانفي 2016 أعلنت حاضرة الفاتيكان بدء السريان الفعلي بالاعتراف بدولة فلسطين، وشهدت الشهور الأخيرة من عام 2014 سلسلة من الاعترافات البرلمانية الأوروبية الرمزية، التي تدعو حكوماتها للاعتراف رسميًا بالدولة الفلسطينية[24]، ويبلغ عدد هذه البرلمانات كما هو مبين في الجدول المدرج ضمن الملاحق، 11 برلمانا بما فيها البرلمان الأوروبي. ومن المحتمل أن تفتح ظروف معينة المجال مستقبلا إلى أن تتحول بعض الاعترافات الرمزية إلى اعترافات رسمية.

4 - تعمق الانقسامات المذهبية والعرقية والسياسية في الوطن العربي

لأول مرة يسجل التاريخ حدة الانقسام المذهبي في العالم الإسلامي بين السنة والشيعة، حيث أن هذا الانقسام الذي ظهر جليا منذ الاحتلال الأمريكي للعراق، تعمق فيما بعد وأصبح ليس فقط خلافا بين رجال الدين والسياسيين بل أيضا حروبا أهلية في بلدان عربية، ابتداء بالعراق ومرور بالبحرين وانتهاء باليمن. كما تنامى الرفض للثقافة العربية الحاضنة للثقافات المحلية في الوطن العربي، والرفض للقومية العربية والسعي إلى تفتيت الدول الوطنية في العالم العربي بإنشاء دول وكانتونات طائفية وعرقية ومذهبية، كما هو الحال مع دولة كردستان العراق ودولة جنوب السودان.

5 – الانهيار الكلي للدولة في ليبيا

يعد هذا تحولا كبيرا حيث لم تترك ليبيا كمجال جغرافي – سياسي للفوضى الهدامة في تاريخها إلا في هذه المرحلة، فالإدارة الاستعمارية هي فعلا إدارة عنصرية واستغلالية، لكن تقيم في مستعمرتها نظامها الاستعماري الخاص، الذي يمكن فهمه ومن ثمة مواجهته بما يلاءم من الإمكانيات المتاحة. أما هذه الفوضى الضاربة أطنابها في ليبيا بسبب غياب الدولة، الإطار السياسي الذي يطوق الفوضى ويتعامل معها، وبسبب تداخل وتفاعل عوامل أخرى كثيرة، فمن الصعب وضع حد لها دون جهود جبارة على كل المستويات: الداخلي والإقليمي والدولي.

6 – ظروف تعبئة أمنية قصوى للدول العربية المتوسطية

تشهد الدول العربية الجوار للدول العربية التي تشهد أزمات أمنية، ظروف تعبئة شاملة لمواجهة النشاط الإرهابي الذي تقوم به تنظيمات وجماعات إرهابية عديدة عابرة للحدود، حيث اقتضى الأمر من هذه الدول ومازال يقتضي منها،

تخصيص ميزانيات كبيرة للتسلح ولتطوير أنظمتها الأمنية، لأن الأمن هو الحاجة الأساسية التي لا اختلاف بشأن أولويتها، ويتم هذا في كثير من الأحيان على حساب مشاريع التنمية البشرية التي يحتاج إليها المواطن في هذه الدول، وعلى حساب مشاريع التنمية المستدامة لمواجهة المشكلات البيئية المتفاقمة في المنطقة، خاصة منها مشكلتي التصحر وتغير المناخ.

ثالثا: التحولات الكبرى الشاملة لكل منطقة المتوسط

هي تحولات إما لم تشهدها منطقة حوض المتوسط من قبل أو أنها أصبحت تشكل مركز اهتمام كل دول حوض المتوسط بأن أصبحت تتطلب منها تنسيق وتعبئة جماعية معينة، أو تستهدفها جماعيا مثل تنامي الإرهاب الدولي العابر للحدود وتنامي شبكات الجريمة والاتجار في الممنوعات، التي ما فتئت توسع من نفوذها في كل الدول المتوسطية باختراق شتى المجالات ونشر المزيد من الفساد فيها.

1 – قيادة روسيا لحلف عسكري دولي "شرعي" في سوريا

لماذا إدراج هذا الحدث ضمن التحولات الكبرى في مجمل المتوسط وليس في شرقه وفي سوريا بالتحديد؟ لو أن الأمر كذلك، لا ما تم إدراجه ضمن التحولات الكبرى أصلا، لان روسيا (الاتحاد السوفييتي سابقا) كانت دوما حاضرة في سوريا في إطار علاقات تعاون وصداقة تقليدية بين البلدين، لكن روسيا هذه المرة ومن خلال قيادتها لحلف دولي (30 سبتمبر 2015) وضد الإرهاب الدولي ـــ وإن كان في أجواء وعلى أرض دولة واحدة هي سوريا ـــ إنما تعلن للعالم صراحة عن تدشين مرحلة تاريخية جديدة في منطقة حوض المتوسط انطلاقا من شرقه، إعلان يحمل رسائل تختلف مضامينها، موجهة لجميع أعضاء المجتمع الدولي.

وتعد هذه أول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، تتدخل روسيا في حرب ـــ الحرب ضد الإرهاب في سوريا ـــ بهذا الحشد وتستعمل الصواريخ البعيدة المدى انطلاقا من بحر قزوين. لقد جاءت هذه الحرب ضد تنظيم "الدولة الإسلامية" من منظور روسيا، للحيلولة في مقام أول، دون سقوط الدولة السورية بسقوط دمشق، ومن ثمة محاولة إيجاد "الدولة المفيدة" أو "الدولة النفعية" (L'Etat utile) في المدن الكبرى وضواحيها وعبر الطرق الكبيرة الرابطة بينها، ودفع الجماعات والتنظيمات الإرهابية إلى الانحصار في المناطق النائية وقطع الصلة بينها. وفي مقام ثان لتأكيد أن من هذه اللحظة فصاعدا لم تعد الأمور في المتوسط كما كانت منذ قرون حكرا على القوى الغربية.

وفي هذا السياق ينبغي أن تقرأ الإستراتيجية الروسية في شرق المتوسط، من زاوية أن النظام الروسي وكما عبر عن ذلك ميشال ألتشانينوف، متخصص في الفينومينولوجيا (La phénoménologie) والفلسفة الروسية، أصبح "يعيش على فكرة أن روسيا، طبيعيا، هي إمبراطورية حدودها تتنفس.. على أن روسيا قلعة محصنة.."، حيث أثار انضمام شبه جزيرة القرم إلى روسيا حسب المتحدث نفسه "شعورا حقيقيا بالاعتزاز الوطني"[25]. ولاحظ ألتشانينوف أن الرئيس بوتين وتماشيا مع التطلعات والأهداف الجديدة لروسيا، بدأ يصعّد خطابه المناهض للغرب ابتداء من 2004، أي بالتحديد بعد الانتفاضتين على التوالي في جورجيا وأوكرانيا وانضمام دول البلطيق إلى الحلف الأطلسي[26].

ومن جهة أخرى، تعد هذه أول مرة تلقى روسيا دعما لوجيستيا من قبل الحليف الصيني (بارجة حربية صينية في المتوسط قبالة الساحل السوري لحماية ظهر قوات التدخل الروسي وقاعدة طرطوس) وذلك خارج المجال الإقليمي للصين، لأن نوع من التحالف الضمني يسجله التاريخ في الحرب بين الكوريتين (1950 – 1953)[27]. والصين بهذا التنسيق مع روسيا، تدشن حضورا عسكريا في شرق المتوسط (2015). وسبق ذلك قيام فرقاطة صينية في سنة 2014 بجولة متوسطية توقفت خلالها بعدة موانئ[28].

2 – تزامن حلفين عسكريين دوليين "متنافسين" في مجال جغرافي سياسي واحد

يطرح تزامن حلفين عسكريين دوليين "متنافسين" في المكان الواحد ولأول مرة في التاريخ الحديث، رهانات خطيرة جدا على كل المنطقة المتوسطية، على اعتبار الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا اللتين تقودان الحلفيين، تعتبران من القوى العظمى عسكريا، وأن مجرد الخطأ وعدم التحكم في المواقف وردود الفعل المختلفة خلال أداء المهمات العسكرية، يمكن أن يجر لحرب مدمرة بالمنطقة، وقد حدثت فعلا مثل هذه المواقف بين روسيا وتركيا حليفة الولايات

المتحدة الأمريكية وعضو مؤسس لحلف النيتو، ولولا الحكمة والتعقل في إدارة الأزمات، لأفضت الأمور إلى نتائج لا تحمد عقباها.

وفي النزاع الأوكراني على سبيل المثال هنالك من الملاحظين من أحصى 66 حادثا عسكريا خلال 18 شهرا تمتد بين سنتي 2014 – 2015، كان ممكنا أن يفجر كل حادث منها حربا بين الحلف الأطلسي وروسيا، إلى درجة حذّر تقرير صدر عن فريق من الباحثين متكون من عسكريين ووزراء سابقين للشؤون الخارجية، كل من الروس والبلدان الأعضاء في الحلف الأطلسي من مخاطر حرب تزداد باستمرار[29].

وتشكل الأجواء والأرض السورية، المجال الذي يسعى فيه الحلفان إلى تحقيق الهدف المعلن نفسه: ضرب تنظيم "الدولة الإسلامية". بالإضافة إلى أهداف أخرى للطرفين غير مشتركة، لأنه حاصل عدم تطابق بين الحلفين حول منّ يعد إرهابيا من التنظيمات المسلحة الناشطة في سوريا. وتضيف الولايات المتحدة الأمريكية والدول المنضمة إليها في حلفها الدولي الذي تأسس في صيف 2014، مجال آخر لتدخلاتها هو الأجواء العراقية. وهذا وضع لم يحدث منذ الحرب العالمية الثانية عندما التقت الدول الغربية الحليفة مع الاتحاد السوفييتي حول هدف واحد مشترك بينهما هو محاربة النازية، لكن على جبهات قتال ومعارك مختلفة.

3 - تنامي رهيب للإرهاب في المتوسط

أصبحت المنطقة المتوسطية بامتياز، منطقة خصبة لنشاط وحركة تنقل عناصر التنظيمات والجماعات الإرهابية، وفي كثير من الأحيان بتهاون قوى دولية وإقليمية كثيرة في مواجهة هذه التنظيمات والجماعات، ففي سوريا وحدها تجاوز عدد المقاتلين الأجانب في فترة معينة من أزمتها (ما بعد جوان 2014)، 31 ألف مقاتل من 86 جنسية، منهم 5000 من أوروبا الغربية وحدها، وتذكر بعض المصادر أن عدد الفرنسيين من هؤلاء وصل إلى 1700 مقاتل، ولقد سيطرت الجماعات الإرهابية على 90 % من التراب السوري قبل التدخل الروسي في سوريا في نهاية سبتمبر 2015.[30]

ويذكر من أهم التنظيمات والجماعات الإرهابية الناشطة في منطقة حوض المتوسط، ومناطق الجوار الإقليمي، "تنظيم الدولة الإسلامية" الذي نشأ في العراق في 2006 تحت اسم تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق" ثم امتد إلى سوريا وأصبح يسمي نفسه "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، تسمية تختصر إلى "داعش"، ثم تخلى عن المحدد الجغرافي في اسمه، ما يعني أنه يضرب في كل مكان من العالم وأن "الخلافة الإسلامية" التي يصبو إليها ستكون عالمية الامتداد من منظوره.

كما يواصل تنظيم القاعدة من جهته وعبر فروعه المختلفة منها تنظيم القاعدة للمغرب الإسلامي، نشر الأيديولوجية الجهادية عبر العالم، والقيام بنشاطه الإرهابي. ويذكر أيضا من هذه الجماعات والتنظيمات الإرهابية "أنصار بيت المقدس" الناشط في مصر، و"المرابطون" و"أنصار الدين"، و"أنصار الشريعة"، و"بوكو حرام"، كما هو مبين في الخارطة المدرجة ضمن الملاحق.

4 – تزايد الاستثمارات الصينية في المنطقة المتوسطية

تشهد المنطقة المتوسطية بشمالها وجنوبها، نموا متزايد للاستثمارات الصينية فيها، فالصين أصبحت منذ 2014 القوة الاقتصادية الأولى في العالم، ويسجل في هذا السياق أن ثلاثة بلدان متوسطية هي فرنسا والجزائر وتركيا، تركزت بها لوحدها 78 % من الاستثمارات الصينية في البلدان المشاطئة للمتوسط للفترة الممتدة من 2003 إلى 2015 وذلك بالنسب التالية من هذه الاستثمارات: فرنسا 43,5 % والجزائر 20,8 % وتركيا 10,6 %.[31]

في حالة فرنسا يعود ارتفاع الاستثمارات الصينية إلى إقبال صندوق الصين السيادي "شركة الصين للاستثمار" (China Investment Corporation) في سنة 2011، على شراء نسبة 30 % من أسهم مجموعة "كاز دي فرانس ـــ سويس" (GDF Suez E & P International) المتخصصة في الإنتاج والتنقيب عن الغاز والبترول. وفي تركيا حصلت زيادة الاستثمار الصيني في سنة 2015، أيضا بالاستثمار في الأسهم حيث اشترى "بنك الصين الصناعي والتجاري" (ICBC) نسبة 75,5 % من أسهم بنك "تكستيل بنك" (Tekstilbank). وفي الجزائر شهدت

سنة 2014 ليس فقط زيادة الاستثمارات الصينية عن السنوات السابقة بل وتفوق هذه الاستثمارات على باقي الاستثمارات الأجنبية[32].

5 - تنامي اللجوء والهجرة غير الشرعية نحو أوروبا من مناطق الحروب والنزاعات

منذ بداية الانتفاضات العربية في 2011، وعدد الأشخاص الذين يحاولون دخول الاتحاد الأوروبي طلبا للهجرة واللجوء، في تزايد كبير إلى أن وصل خلال سنتي 2015 و2016 حد غير مسبوق، أي عقب صدور قرار المستشارة الألمانية ميركل (25 أوت 2015) بعدم طرد السوريين الذين يدخلون تراب الاتحاد الأوروبي، ما يعني تعليق العمل باتفاقية دبلن 1990، حيث تضاعف الرقم حتى بلغ 626 ألف[33]، وإن كان هذا الازدياد لا يشكل أكثر من 0,12 % سنويا من سكان الاتحاد الأوروبي المقدر عددهم بـ 508 مليون نسمة ـــ بحساب سكان بريطانيا المنسحبة من الاتحاد ضمنهم ـــ وهو في حال ما إذا تمت السيطرة عليه جيدا، لا يشكل هذا الازدياد أي تهديد لبلدان الاتحاد في المدى المنظور.

ويذكر في هذا السياق والأمر غير خفي، أن أرباب العمل في ألمانيا، هم من قرر في شهر كانون أول 2014، إدخال 800 ألف من اليد العاملة المهاجرة لاستغلالها في صناعاتهم، كما يذكر أن حلف شمال الأطلسي يحتفظ بحق التدخل عسكريا حين تصبح الهجرة بأعداد كبيرة جدا[34]. والمشكلة ليست في عدد طالبي الهجرة واللجوء بقدر ما هي في رفض شرائح كبيرة من المجتمع الأوروبي لهؤلاء المهاجرين واللاجئين بدافع تخوفات متباينة، منها ما يتعلق بانتشار الإسلام وضياع الهوية، ومنها ما يتعلق بفقدان فرص التشغيل القليلة أصلا بسبب الأزمة الاقتصادية، ومنها ما يدور حول فكرة فقدان "نقاوة" العرق، وأخرى حول تغلغل الإرهابيين وانتشار العنف.

المحور الثاني: الرهانات على أمن المنطقة المغاربية

تطرح التحولات الكبرى الحاصلة في منطقة المتوسط خلال العشرية الأخيرة، رهانات على أمن شعوب ومجتمعات ودول المنطقة المغاربية، بدرجات متفاوتة من حيث التأثير.

أولا: رهان صعوبة بناء "الدولة المفيدة" في ليبيا في القريب العاجل

يتطلب مسار إيجاد "الدولة المفيدة" المحققة للأمن والاستقرار في حدوده الدنيا في ليبيا، وقتا طويلا ولن يتم ذلك في القريب العاجل. ما يعني أن التعبئة الشاملة في المنطقة ضد الإرهاب ستظل قائمة لفترة أخرى أطول.

ومفهوم "الدولة المفيدة" الموظف من قبل روسيا في سوريا، يعني إخراج التنظيمات الإرهابية من المدن الكبرى وحصر وجودها في مناطق محدودة، والتأمين على طرق المواصلات الرابطة بين هذه المدن والقرى القريبة منها. مثل هذه الأهداف في ليبيا في ظل غياب الدولة ومؤسساتها واتساع مساحة البلاد لن يكون سهلا، ويتطلب الأمر اتفاقا بين الأطراف الليبية المتنازعة بشأن طبيعة الدولة والنظام السياسي المرغوب في إقامتهما، وكذا التراجع نهائيا في تركيا عن مشروع "الخلافة العثمانية الجديدة" التي يطمح المنظرون والمخططون لها إلى أن تكون في شكل كونفيدرالية دول، يمكن أن تبدأ مع دولة أو دولتين عربيتين ثم تتوسع إلى باقي الدول العربية. كما يتطلب الأمر تحقيق تضييق معتبر على الجماعات والتنظيمات الإرهابية وشبكات الاتجار في الممنوعات الناشطة في منطقة جنوب الصحراء، وتوقف السودان نهائيا عن تحريك الأوضاع في ليبيا بإيعاز من قطر.

فنظرا لكون الوضع الراهن في ليبيا كان وليد عوامل خارجية بنسبة أكبر، عوامل ترتبط بتدخل الحلف الأطلسي وبالتصورات الجيوبوليتيكية التي تحملها القوى الدولية والإقليمية للمنطقة المغاربية[35]، وبمجريات الأحداث وتطوراتها في شرق المتوسط وشماله، فإنه من المحتمل أن لا تنتهي الانقسامات في ليبيا.. إلا بتوقف تأثير هذه العوامل الخارجية فيها، وقد يأخذ ذلك وقتا طويلا.

ثانيا: رهان استمرار التهديدات الإرهابية في الدول المغاربية

يتوقع استمرار التهديدات الإرهابية في دول المنطقة المغاربية، وذلك لما ينشط فيها ولما يحاط بها في مناطق الجوار الإقليمي من تنظيمات وجماعات إرهابية ناشطة وخلايا نائمة. كما يتوقع استمرار عمليات ترحيل الشباب المغاربي إلى

مناطق "الجهاد" البعيدة، وكذا استمرار انتشار شبكات الاتجار في الممنوعات. وباستمرار التهديد الإرهابي قائما في المنطقة المغاربية، ستستمر التعبئة الشاملة لمواجهته.

والجدير بالإشارة في هذا المضمار أن الإرهاب يرتبط ارتباطا وثيقا بمسألتين، الأولى تتعلق بتوظيفه من قبل قوى دولية وإقليمية لتحقيق أهداف إستراتيجية، والثانية تتعلق باتخاذه غطاء لإخفاء وتسهيل نشاط شبكات عالمية للاتجار في المخدرات والسلاح وتبييض أموال الفساد، وعندما تتقرر الحاجة إلى هذا التوظيف، يأتي بعد ذلك العمل على تهيئة البيئة الملائمة لنشأة التنظيمات والجماعات الإرهابية (تجنيد المقاتلين) والبيئة الحاضنة لنشاطهم الإرهابي إذا لم تكن مهيأة من قبل.

ويذكر في الموضوع أن عدد المقاتلين في صفوف التنظيمات والجماعات الإرهابية في سوريا والعراق من المنطقة المغاربية وصل في فترة معينة إلى 8000 مقاتل منهم 6000 مقاتل من تونس وحدها.[36] وفي هذا الصدد يشير فهد المصري رئيس مركز الدراسات الإستراتيجية والأمنية والعسكرية حول سوريا وناطق سابق باسم الجيش السوري الحر (ASL) في حديث ليومية الشروق، أن عدد الجزائريين الذين انخرطوا في صفوف تنظيم "الدولة الإسلامية" والجماعات الإرهابية الأخرى (منها جبهة النصرة المحسوبة على تنظيم القاعدة) في سوريا تراوح بين 800 و1100 مقاتل، دون أن يعني هذا الرقم الجهاديين من أصول جزائرية، الذين قدموا إلى سوريا من فرنسا وأوروبا بصفة عامة. وحسب نفس المصدر، قتل من هؤلاء ما نسبته 15 إلى 20 %، وجرح منهم 10 %، جروح تمنعهم من مواصلة القتال، وعدد آخر منهم يقدر ببضع العشرات عادوا إلى الجزائر متراجعين عما يسمونه "جهاد" بعد انكشاف حقائق الأمور لهم. كما يوجد ضمن الجماعات الجهادية المختلفة في سوريا عدد كبير أيضا من الليبيين والمغاربة.[37]

ثالثا: رهان التشتت بين تحالفات القوى الكبرى

من شأن انضمام روسيا والصين إلى قائمة القوى العسكرية المتوسطية، أن يعمل مع الوقت على إيجاد وضع صعب للدول المغاربية، قد تجد نفسها فيه وفي ظل الترتيبات الأمنية المطلوبة في حوض المتوسط، مدعوة للتعاون أو التنسيق مع تحالفات إقليمية ودولية "متنافسة" إن لم تكن "متنازعة". وفي هذا السياق يذكر أن الدول المغاربية تنسق حاليا بشأن هذه الترتيبات في إطار حوار 5 + 5 ومبادرات أخرى.

ثم إن تنامي الاستثمارات الاقتصادية للصين وروسيا في المنطقة المغاربية في ظل تراجع استثمارات دول الاتحاد الأوروبي خاصة منها بلدان الضفة الشمالية للمتوسط، فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والتي هي دول ذات نفوذ تاريخي بالمنطقة المغاربية، يمكن أن يتداعى بشيء من عدم الاستقرار ومن محاولات الإخلال بالتوازنات الجديدة الناشئة في المنطقة. خاصة إذا امتدت هذه الاستثمارات لتشمل قطاعات إستراتيجية أو قطاعات تطمح الدول الأوروبية إلى الاستثمار فيها.

رابعا: رهانات تداعي الانقسامات السياسية والمذهبية المشرقية

يمكن أن تتجلى تداعيات الانقسامات السياسية الحاصلة في المشرق العربي على دول المنطقة المغاربية بنوع من الضعف لمواقف وقرارات مجموعة الدول الأخيرة وخاصة منها الجزائر في المحافل الدولية بشأن القضية الفلسطينية، كقضية جوهرية للدول العربية، وقضية وجود، وبشأن قضايا عربية أخرى، بحيث لم تعد تجد هذه القرارات السند نفسه من قبل دول عربية تقدمية كما كان الحال قبل انتفاضات 2011، حيث تعرضت هذه الدول لحروب عليها ولأزمات أمنية حادة، لم تعد تترك لها مجالا للانشغال أصلا بالقضية الفلسطينية.

كما يرشح امتداد الانقسامات المذهبية من المشرق إلى المغرب، وانتشارها بدرجة قد تهدد التوازنات القديمة في المجتمعات المغاربية، ومنها التوازنات السياسية.

خامسا: رهان تحول البلدان المغاربية إلى بلدان جذب للهجرة الإفريقية

يحتمل أن تتحول البلدان المغاربية المستقرة نسبيا إلى بلدان جذب للهجرة الإفريقية، بحيث تصبح مقصد للاستقرار بها بعد أن كانت بلدان عبور، وذلك أمام وصول أحزاب اليمين إلى الحكم في أوروبا المعادية للمهاجرين، وأمام الإجراءات المتشددة التي تلجأ إليها في المجال الدول الأوروبية، هذا من الجانب الأوروبي، ومن الجانب الإفريقي بسبب عاملين، الأول يتعلق بفقدان الأمن البيئي نتيجة المشكلات البيئية وعلى رأسها مشكلة تغير المناخ التي تتداعى في منطقة

الساحل بالجفاف والتصحر، مما ولد ظاهرة "اللاجئين المناخيين" واللاجئين الاقتصاديين". ويتعلق العامل الثاني بفقدان الاستقرار والأمن نتيجة انتشار نشاطات الجماعات والتنظيمات الإرهابية وشبكات الاتجار في الممنوعات، مما يدفع السكان المحليين إلى الهروب من مناطقهم والهجرة خوفا من التعرض للقتل والنهب والتجنيد الإجباري في صفوف مقاتلي الجماعات الإرهابية.

وهكذا ستكون البلدان المغاربية، الجزائر والمغرب خاصة وتونس بدرجة أقل، أمام تحمل أعباء الهجرة إليها من البلدان الإفريقية جنوب الصحراء، في ظروف بالنسبة لتونس تتميز بتراجع إقبال السياح الأجانب والأوروبيين منهم خاصة، على السياحة التونسية، ما يعني تراجع مداخيل هذا القطاع الحيوي والمهم لتحريك الاقتصاد التونسي. ومن جهتها تمر الجزائر بظروف يؤثر فيها انخفاض أسعار الخام على احتياطات الصرف، حيث انخفضت بحوالي 20 مليار دولار في ستة أشهر بسبب سقوط أسعار البترول. هذه الاحتياطات انخفضت إلى **159,027** مليار دولار في نهاية شهر جوان 2015، في مقابل **178,928 مليار دولار في نهاية ديسمبر 2014. لقد انخفضت في سنة واحدة بـ** 34,24 مليار دولار.[38]

إن انخفاض أسعار الذهب الأسود قلص "مداخيل المحروقات (les recettes d'hydrocarbures) للجزائر إلى **58,34مليار دولار في 2014 مقابل 63 مليار في سنة 2013.. وخلال السداسي الأول من سنة 2015 انخفضت مداخيل البترول والغاز بحوالي نسبة 50 %، بالانتقال من** 15,6 مليار دولار في مارس 2014 إلى فقط 8,7 مليار دولار"[39]. وهكذا في ظل انخفاض أسعار البترول بالنسبة للجزائر وتراجع الإقبال الأوروبي على السياحة في تونس، وتزايد مطالب المواطنين في المغرب بتنمية متوازنة، فإن الأمر سيتطلب إدارة فعالة للوضع، وهذا ليس سهلا بانتشار الفساد.

خلاصة:

في الأخير يمكن استنتاج أن التحولات الكبرى في المتوسط، حتى وإن كانت ذات طابع تراكمي، فإن الكثير منها يعتبر "تغيرات"، ويدشن لمنعطفات حاسمة جدا من تاريخ شعوب منطقة المتوسط. فإذا كانت مسارات "التغير" تتأتى في الغالب عبر حركات ثورية سلمية كانت أو موظفة للعنف الثوري، فإنها في حالات معينة تتأتى عبر تراكمية للأحداث إلى حدها الأقصى، فينتج الزخم الكمي مع الوقت تحولا نوعيا.

ورهانات هذه التحولات خطيرة، لتلاقي عدة أسباب، منها أن الأمر يتعلق بمنطقة "حوض المتوسط" التي هي قلب العالم ومهد الحضارات وملتقى الثقافات، ثم أن المرحلة الراهنة بصدد مسارات من التطور في شمال المتوسط بلغت منتهاها، وبصدد نزاع تاريخي في شرق المتوسط مرشح لأن لا يطول أكثر مما طال، بحسم لن يكون مرنا. وأن تداعيات كل هذا على المنطقة المغاربية سيستدعي تعبئة أكبر مما هي عليه حاليا.

الملاحق:

الملحق رقم (1): جدول موضح للوزن السياسي للحركات والأحزاب الشعبوية واليمينية المتطرفة الأوروبية في البرلمانات الوطنية في 2012

البلد	اسم الحزب اليميني	عدد ونسبة المقاعد التي يشغلها في البرلمان
النمسا	- حزب الحرية (FPÖ) - التحالف من أجل مستقبل النمسا (BZÖ)	34 مقعدا من 183 – 17,5 % 21 مقعدا من 183 - 10,7 %
سويسرا	الاتحاد الديمقراطي للوسط (UDC)	54 مقعدا من 200 - 26,6 %
النرويج	حزب التقدم (le parti du Progrès)	41 مقعدا من 169 – 23 %
فنلندا	حزب الفنلنديين الأصيلين (Le parti des Vrais Finlandais)	39 مقعدا من 200 - 19,1 %
المجر	تحالف شباب اليمين: الحركة من أجل مجر أفضل (Jobbik)	46 مقعدا من 386 - 16,7 %
دانمرك	حزب الشعب الدانمركي (Parti du peuple danois)	22 مقعدا من 179 – 13,9 %
بلجيكا	حزب: المصلحة الفلمنكية (Intérêt flamand)	12 مقعدا من 150 – 8,2 %
هولندا	حزب الحرية (Le Parti pour la liberté – PVV)	24 مقعدا من 150 – 15,5 %
السويد	حزب: ديمقراطيو السويد (Démocrates de Suède)	20 مقعدا من 348 – 5,7 %

المصدر: بتصرف عن: Charlotte Chaffanjon, (Quel poids politique pour l'extrême droite en Europe ?), http://www.lepoint.fr/ , Publié le 23/04/2012 à 15:38 - Modifié le 23/04/2012 à 16:23

الملحق رقم (2): جدول بالاعترافات البرلمانية الأوروبية الرمزية

البرلمان	تاريخ الاعتراف	المؤيدون	المعارضون	الممتنعون	طبيعة الاعتراف
البرلمان الأوروبي	2014/12/17	498	88		رمزي
برلمان لكسمبورغ	2014/12/17	34	3	23	رمزي
برلمان إقليم بروكسل البلجيكي	2014/12/13	56	11	12	رمزي
البرلمان البرتغالي	2014/12/12	203	9	5	رمزي
البرلمان الفرنسي	2014/12/2	339	151	16	رمزي
برلمان إقليم والوني البلجيكي	2014/12/11	-	-	-	رمزي
البرلمان الايرلندي	2014/12/11	-	-	-	رمزي
البرلمان الاسباني	2014/11/18	319	2	1	رمزي
البرلمان البريطاني	2014/10/14	274	12		رمزي
البرلمان الايطالي	2015/2/27	300	45	56	رمزي
البرلمان اليوناني	2015/12/22	بالإجماع	00	00	رمزي

المصدر: مركز المعلومات الوطني الفلسطيني– وفا (التسلسل الزمني للاعتراف بالدولة الفلسطينية)، http://info.wafa.ps/ تم التصفح في 2017/10/07.

الملحق رقم (3): خارطة انتشار الجماعات الإسلامية المسلحة المهددة لأمن المنطقة المغاربية

المصدر: Laurent Dupuis, (Djihadisme : carte des principaux groupes armés islamistes dans le monde) , http://www.la-croix.com/ , Le journal La Croix, le 23/09/2014 à 18h02

الهوامش والإحالات:

[1] - ينظر:

- OCDE, (Perspectives économiques de l'OCDE, Rapport intermédiaire septembre 2010), http://dx.doi.org/10.1787/eco_outlook-v2010-sup1-fr, Paris : Editions OCDE, Oct 2010
- Fonds monétaire international, (Études économiques et financières - Perspectives de l'économie mondiale - Octobre 2010 - Reprise, risques et rééquilibrage), https://www.imfbookstore.org, Washington : FMI, Division des services multimédias, Services linguistiques, Section française, Traduction : Marc Servais,2010, p.95 – 99, 107 – 110.

[2] - للمزيد ينظر النظرية البنائية في:

- AlexMacleod, (Les études de sécurité : du constructivisme dominant au constructivisme critique), http://conflits.revues.org/1526, été 2004, Online since 08 January 2010.

[3] - ألكسندر دوغين (Alexandre Douguine)، منظر سياسي روسي حاصل على شهادتي دكتوراه في "تاريخ العلوم" و"العلوم السياسية" 2004، يتحدث 9 لغات، له عدة مؤلفات منها خاصة:"نداء أوراسيا" (*L'appel de l'Eurasie*)2013 ، و"نظرية لعالم متعدد الأقطاب" (*Pour une théorie du monde multipolaire*) 2013 .

[4] - Michel Eltchaninoff, (Poutine a aujourd'hui plusieurs cartes dans sa manche pour diviser l'Europe), http://www.20minutes.fr/monde/vladimir_poutine/ , Propos recueillis par Maud Pierron, Mis à jour le 04.03.2015 à 09:33.

[5] - Charlotte Chaffanjon, (Quel poids politique pour l'extrême droite en Europe ?), http://www.lepoint.fr/ , Publié le 23/04/2012 à 15:38 - Modifié le 23/04/2012 à 16:23.

- Le Monde.fr, (France - Résultats présidentielle 2017), © Le Monde.fr

[6] - Gérald Roux, Valentin Colcomb, (Expliquez-nous ... l'extrême-droite en Europe), http://www.franceinfo.fr/ , mardi 8 décembre 2015.

-Charlotte Chaffanjon, op. cit.

[7] - Gérald Roux, Valentin Colcomb, op. cit.

-Charlotte Chaffanjon, op. cit.

[8] - Gérald Roux, Valentin Colcomb, op. cit.

[9] - Anissa Boumediene, (Législatives en Allemagne: L'entrée de l'AfD au Bundestag marque-t-elle la fin d'un tabou?), http://www.20minutes.fr/monde/, Mis à jour le 25/09/17 à 18h24.

[10] - Gérald Roux, Valentin Colcomb, op. cit.

[11] - ينظر: سلوى بن جديد، (فرنسا وتنامي تيار الرفض للاتحاد الأوروبي)، مجلة السياسة الدولية (مؤسسة الأهرام - مصر)، العدد 208، ابريل 2017.

[12] - للمزيد ينظر: مالك بن نبي، آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة، للمفهومية. ترجمة الطيب الشريف، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، بدون تاريخ، ص 84.

- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، بدون تاريخ، ص 54.

[13] - السيد يسين، عزمي بشارة، أنطوان زحلان، وآخرون، العرب و العولمة - بحوث ومناقشات. الطبعة الثالثة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000، ص 50،57، 65، 140، 194–195، 303–307، 346،390.

[14] - Michel Eltchaninoff,

[15] -Ibid.

[16] - ينظر: أحمد داود أوغلو، العمق الإستراتيجي – موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل، مراجعة بشير نافع وبرهان كوروغلو، مركز الجزيرة للدراسات والدار العربية للعلوم، 2010، ص 104 – 106.

[17] - ينظر: محمد أحمد خلف الله، منح الصلح، أحمد صدقي الدجاني، وآخرون... القومية العربية والإسلام. الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1982، ص 160 – 162، 116، 146.

[18] - Sputnik, (Syrie: le bilan terrifiant du conflit), https://fr.sputniknews.com/ mis à jour 15:08 11.02.2016.

- Rédaction Europe1, (Le bilan du conflit en Syrie approche les 500.000 morts), http://www.europe1.fr/, modifié à 11h18, le 11 février 2016

[19] - Sputnik, op. cit.

- Rédaction Europe1, op. cit.

[20] - Boris Manenti, (CARTES. L'implacable progression de l'Etat islamique en Irak et en Syrie), http://tempsreel.nouvelobs.com/, Publié le 19 mai 2015 .

[21]- *20minutes avec AFP, (*Irak: les Etats-Unis transfèrent leur dernière base aux Irakiens), http://www.20minutes.fr/monde/Mis à jour le 16/12/11 à 13h20.

[22] - Infographie, (1,3 million de morts: le vrai bilan de la «guerre contre le terrorisme»), https://infogr.am/ , Mis en ligne samedi 4 avril 2015, 17h23

[23] - *6Medias, LePoint.fr* , (800 personnalités israéliennes appellent l'Europe à reconnaître la Palestine), http://www.lepoint.fr/, *dim. 7 déc. 2014*

[24] - مركز المعلومات الوطني الفلسطيني– وفا (التسلسل الزمني للاعتراف بالدولة الفلسطينية)، http://info.wafa.ps/
تم التصفح في 2017/10/07.

[25] - Michel Eltchaninoff, op. cit.

[26] - Ibid.

[27] - ينظر: جماعة من المؤلفين الغربيين. قضايا عصرنا منذ 1945. تعريب نور الدين حاطوم، دمشق: دار الفكر، 1981، ص 128 - 131.

[28] - Richard Labévière, (La Méditerranée n'est plus une mer occidentale…), http://prochetmoyen-orient.ch/, *12 septembre 2016.*

- RIA NOVOSTI, (La Russie et la Chine effectuent des exercices conjoints en mer Méditerranée), https://français.rt.co/international, 19 mai 2015, 16:54.

[29] - Atlantico, (66 incidents militaires en 18 mois : les frictions Russie Otan dégénèrent), http://www.atlantico.fr/ , Publié le 7 Septembre 2015.

[30] - *Maxime Bourdier*, (Nombre, origine... les affolants chiffres des jihadistes en Syrie ont été publiés), http://www.huffingtonpost.fr/2015/12/08/

- الناطق باسم وزارة الدفاع الروسية اللواء إيغور كوناشينكوف، في: نشرة الأخبار، القناة التلفزيونية الإخبارية الدولية "آرتي" (RT)، 2017/10/05.

[31] - Thierry Pairault , (Flux d'investissement direct chinois dans les **pays riverains de la Méditerranée «PRM» 2003-2015** - Données compilées à partir des communiqués annuels du MOFCOM)**,** http://pairault.fr/sinaf/index.php/, 15 décembre 2016.

[32] - Ibid.

[33] - تييري ميسان (أزمة اللاجئين في أوروبا)، ترجمة سعيد هلال الشريفي، على موقع شبكة فولتير http://www.voltairenet.org، دمشق (سوريا) 8 أيلول (سبتمبر) 2015.

[34] – المرجع نفسه.

[35] – ينظر: سلوى بن جديد (المنطقة المغاربية بين مشروعي المغرب العربي والمغرب الكبير)، مجلة شؤون الأوسط (لبنان)، العدد 154، خريف 2016.

[36] - *Maxime Bourdier, op. cit.*

[37] - HuffPost Algérie , (800 à 1100 algériens combattent avec Daech et les mouvements jihadistes en Syrie), http://www.huffpost.dz/ , Mis à jour: 29/03/2015 09h46.

[38] **-** *La Tribune*, (Algérie : la chute des cours du brut impacte lourdement les réserves de change), http://www.latribune.fr/economie/

[39] - Ibid.